﴿ شبهات النصارى وحجج المسلمين ﴾

(النبذة الثالثة في رد شبهاتهم على القرآن)

(الشاهد التاسع على تناقض القرآن بزعمهم) قوله تعالى في سورة الانعام « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » مع قوله تعالى في سورة النساء « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » والجواب عنه من وجهين أحدهما أن لفظ (يوم) له إطلاقان إطلاق بمعنى مدة بياض النهار أو مجموع ليل ونهار وإطلاق بمعنى الوقت مطلقاً واذا أضيف الى حادثة وقت أو قدر وقوعها في المستقبل يراد به الاطلاق الثاني ومنه أيام العرب المشهورة لا يريدون باليوم منها بياض نهار ولا مجموع نهار وليل وانما يريدون الوقت وان كان ساعة واحدة أو أياما طويلة بحسب الإطلاق الاول. ومنه أيضاً ماعبر عنه في القرآن الكريم بكلمة يومئذ أو يوم يكون كذا كقوله « ويوم نحشرهم جميعا » وقوله « يومئذ يود الذين كفروا » الخ ومثلهما كثير جدا لاسيما في سياق الكلام على الآخرة التي ليس فيها أيام تتعاقب مع الليالي فمعنى «يوم» في كل آية وقت يحدده الفعل الذي تعلق هو به في الآية أو المضاف اليه كيوم الحسرة

اذا تمهد هذا فاعلم ان الآيتين اللتين زعم النصراني تناقضهما تتبينان بأمرين يكونان في يومين أي وقتين مختلفين أحدهما حشر المشركين وسؤالهم عن الشرك وقد أخبر انهم يومئذ ينكرون كما في آية الانعام وثانيهما إتيان الله بعد ذلك الانكار بالشهداء يشهدون عليهم وفي ذلك الوقت (أو اليوم) يضطرون الى الاعتراف فيعترفون ولا يكتمون كما في آية النساء. وقد حذف المعترض الآية التي قبل قوله تعالى «يومئذ يود الذين كفروا» الخ وهي التي تدل على أن عدم الكتمان إنما يكون بعد شهادة الشهداء وهي قوله عز وجل « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » ومجموع الآيات يمثل لنا محاكمة في الحساب الاخروي ينكر فيها الخصم جريمته أولا

ثم يضطر الى الاعتراف بعد شهادة الشهداء وإقامة البينة كما يعهد في الدنيا. والحكمة في هذا ردع العصاة وانذارهم عاقبة الفضيحة في تلك المحاكمة التي لا يظلم فيها أحد. فالآيات متوافقة متطابقة وما أظن ان ذلك « العلامة اللغوي » الذي حرّر الاعتراض يجهل ذلك وانما هو مكابر ومشاغب

هذا هو الوجه الأول في الجواب وأما الوجه الثاني فهو ماذهب اليه بعض المفسرين من أن الواو في قوله «ولا يكتمون الله حديثاً» واو الحال وليست واو العطف فتدلّ على عدم الكتمان ومعنى الآية حينئذ ان أولئك الكافرين العاصين تأخذهم الرهبة ويحيط بهم الوجل فلا يتجرأون على الكذب على الله تعالى وإنكار ماكان منهم بل يودون ان يكونوا ترابا فتسوى بهم الارض ولا يكتمون الله حديثا يعلمون انه محيط به وانه لا يغرب عن علمه، كما تقول: أودّ أن أقتل ولا أغشك: أي انني استحب الموت وأفضله على غشك. وبهذا التفسير تكون هذه الآية بمعنى الأولى وهو لا يأباه النظم ولا ينبذه الاعراب ولا ترفضه البلاغة والفصاحة وما هو بتأويل. ولا انحراف عن السبيل، ولو شاء المجيب ان يكثر من الوجوه لفعل فانه يشترط في تحقق التناقض الاتحاد في الموضوع والمحمول والزمان والمكان، الى آخر مايعدونه الوحدات الثمان، فكما ان الجواب الاول أبان عدم التناقض لعدم الاتفاق في الزمان (والجواب الثاني نفى الخلاف بالمرة) فلنا ان نجيب جوابا ثالثا باختلاف الموضوع فنقول ان التناقض غير متحقق لاختلاف القضيتين في الموضوع فان إحداهما تحكي عن المشركين والاخرى عن الذين كفروا وعصوا الرسول وتشمل الموحدين الذين لم يشركوا ولكن كان كفرهم برفض الايمان بالنبي عليه الصلاة والسلام كما تشمل الذين آمنوا برسالته، ولكن عصوه في هدايته. وهذه آيات القرآن تصف اليهود بالكفر دون الشرك. ثم ان لنا ان نجيب جوابا رابعاً بمنع التناقض لاختلاف المكان فان يوم القيامة مواقف كما ورد فيحتمل ان ينكر المشركون والكافرون جميعاً في بعضها ويعترفوا في بعض آخر والجواب الاول هو العمدة ويليه في القوة الثاني

(الشاهد العاشر) قوله تعالى في سورة فصلت « قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ (الى قوله) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ» زعم المعترض ان هذا الكلام يفيد أمرين أحدهما انه خلق الارض والسموات في ثمانية أيام والآخر انه خلق السماء بعد الارض لاقبلها لكن الاول منقوض في بضعة مواضع من القرآن بما معناه انه خلقهما وما بينهما في ستة أيام لافي ثمانية والثاني منقوض بقوله في سورة النازعات «أأنتم أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا». ونقول في الجواب عن الامر الاول إن من المستعمل الشائع عند العرب أن يقال مثلا سرت من القاهرة الى طنطا في يومين والى الاسكندرية في أربعة أيام ويراد في يومين آخرين كانا مع ماقبلهما أربعة أيام ولذلك لم يتوقف أحد من الصحابة في فهم الآية ولم ير مفسروهم كابن عباس وغيره ان هذه الآية تحتاج الى بيان وإنما اختلف في إعرابها وإعراب أمثالها النحاة فقدر بعضهم مضافا محذوفا للقرينة فقال المعنى « في تتمة أربعة أيام » كما قدروا في مثل « واسئل القرية » كلمة (أهل) أي اسأل أهل القرية وذهب الزمخشري الى ان الجار والمجرور خبر مبتدإ محذوف يفيد ان العمل او السفر كان في أربعة أيام على طريق الفذلكة ولما كان المعترض مطلعا على هذا ومقتنعا بحسنه في قلبه لم ير سبيلا لصرف الوجوه عنه الاشتم قائليه بتسميه ذلك تأولا من عبث الولدان وقد زين له تعصبه أن يقول انه لو صح هذا « لازم منه ان يقول بعد ذلك عن السموات فقضاهن سبع سموات في ستة أيام لا في يومين كما قال » واحتج على ذلك بزعمه فقال ان موضع الفذلكة آخر الكلام لاأوله «وقد تجاهل أن الآية التي تنطق بخلق الارض قد تمت وجاءت الفذلكة في آخرها وأن الكلام في خلق السموات جاء في آية أخرى ابتدأت بثم التي تستعمل في التراخي في الزمن أو في رتبة العمل ونوعه بصرف النظر عن زمنه كما في قوله « هو الذي خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » وهكذا شأن أهل العنت والريب والتعصب الذميم

وأما الامر الثاني فقد أخذه المعترض من اختلاف المفسرين في خلق السموات والارض أيهما أسبق لاختلاف فهمهم في الآيتين . وله بعض العذر — وهو ينظر بعين السخط والنقد — اذا آنس فيهما خلافاً أو شبهة خلاف فتشبث بها وصرف ذهنه عن الجمع بينهما بما جمع به المفسرون . وانني أقول ان جميع المفسرين قد قصروا في تفسير أمثال هذه الآيات التي تتكلم في أمور المبدإ والمعاد وغير ذلك من الامور الغيبية ولهم العذر فان هذه الامور لم تذكر في الكتب المنزلة لشرح حقائقها وبيان كنهها بالتفصيل ولا ليبان تاريخها وإنما يذكر الخلق والتكوين للاستدلال على قدرة الله وعلمه وحكمته ولتوجيه الانظار الى الاعتبار بما في المخلوقات والمكونات من العلوم والحكم ووجوه المنافع . وقد أجاز بعض علماء اللاهوت من النصارى أن يجيء في الكتب المقدسة من العبر والدلائل الصحيحة ما يبنى على اعتقاد لامم المخاطبة بها وان خالف الحقيقة لأن شرح الحقائق الكونية ليس من موضوع الدين وإنما موضوعه الهداية الى الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح وإنما أجازوه لانه كثير في كتبهم

ومن عجائب القرآن وضروب إعجازه انه يصوغ الحقائق في قوالب العبر فترى العبرة بادية يستفيد منها العوام والخواص والحقائق كامنة فيها يستخرج منها أصحاب القرائح والفهوم ما ينتهي اليه استعدادهم في كل زمن بحسب ارتقاء العقول وتقدم العلوم فيه . كان الناس يتلون فيه آيات التكوين منذ ثلاثة عشر قرنا فيهتدون بدلالتها ويتعظون بعبرها ولا يرون فيها شيئاً خلافاً للحقائق الكونية التي كشفها العلم . ثم ارتقى العلم الكوني في آخر هذه المدة وقرر أهله أشياء في أمور الخلق والتكوين تؤيد القرآن من حيث لا يدرون . قالوا ان السموات والارض قد خلقتا من مادة تشبه الضباب مهما بعضهم سديما كانت مادة واحدة فانفطرت أو انفتقت فكان منها أجسام كرية الشكل انفصل منها كرات أخرى . وقد سبقت الاشارة الى ذلك في القرآن بمثل قوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهي دخان » وقوله « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » وقوله « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »

وقالوا إن هذه الارض لم تخلق هكذا ابتداء وإنما خلقت أطوارا فكانت نارية ثم مائعة ثم يابسة ليس فيها نبات ولا حيوان ثم صار فيها الحيوان والنبات وما حدث

هذه الاطوار الا بالتدريج الطويل كل طور في زمن يليق به . وهذا التفصيل الذي قالوه يفسر الاجمال في قوله عز وجل « قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين » والمعنى ان أصل التكوين تم في زمنين (ولا تنس ماتقدم شرحه من استعمال كلمة يوم في مطلق الزمان) ولا يأبى ذلك ان تكون في أحدهما كرة نارية وفي الثاني مائعة . ثم قال انه بارك فيها وقدر فيها الاقوات حتى صارت صالحة للسكنى وارتفاق الاحياء في يومين تتمة أربعة أيام وذلك صريح أو كالصريح في طور اليابسة التي ظهرت في الماء وطور الاحياء التي ظهرت في اليابسة . ثم انتقل بعد هذا البيان الى ذكر خلق السماء فذكر أنها كانت دخانا وأنه خلقها في يومين أي في زمنين كل منهما تم فيه طور خاص فكان خلق السماء وتكوينها كخلق الارض . ولم يخبرنا بما قدر فيها بعد ذلك ولا بعدد الازمنة التي تدل على عدد الاطوار لان العبرة والاستدلال المقصودين من ذكر التكوين لا يتمان الا فيما للانسان فيه علم ما وان لنا علما ما بوجود السموات والارض فذكر لنا خلقهما وعلما بما في الارض من الاقوات والخيرات فذكر لنا خلق ذلك

فانت ترى انه لا يراد بالايام التي خلقت فيها السموات والارض أزمان متعاقبة بينهما ولا غير متعاقبة وإنما يراد بها الاشارة الى الاطوار ومن شأن الاطوار ان تتعاقب في كل شيء بحسبه « وَخَلَقَنَاكُمْ أَطْوَارًا » فلو فرضنا ان الزمنين اللذين خلقت فيهما الارض هما الزمنان اللذان خلقت فيهما السماء بعينهما كما أن الطورين متحدان لما لزم من ذلك شيء يعترض به على التعبير ، اذ ليس المراد بيان التقديم والتأخير . ومن هنا تعلم ان قوله بعد ذكر خلق الارض « ثم استوى الى السماء » لم يقصد به الترتيب في الزمن بل الترتيب في الذكر كأنه قال اننا سقنا لكم هذه الآية من آيات قدرتنا وحكمتنا ثم اننا نسوق لكم آية أخرى . واستعمال (ثم) في الترتيب الذكري كثير في القرآن وفي كلام العرب والمولدين

وأما قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء في سورة النازعات « والارض بعد ذلك دحاها » فلا يدل على أن خلق الارض كان بعد خلق السماء ولا قبله إذ ليس معنى الدحو الخلق والتكوين وانما معناه تمهيدها للسكنى في نهاية الطور الرابع ولذلك وصل كلمة (دحاها) بتفسيرها فقال « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » ولا شك ان هذا كله كان بعد خلق السماء ووجود الليل والنهار الذي عبر عنه بقوله « واغطش

ليلها وأخرج ضحاها » فظهر أنه لاتناقض ولا تنافي ولاتخالف بين آيات (فصلت) وآية النازعات. وثم وجوه أخرى ذكرها المفسرون تنطبق على اللغة وإنما ذكرنا ماهو الراجح عندنا بحسب ماوصل اليه علمنا وفوق كل ذي علم عليم

القسم العمومي

﴿ نظام الحب والبغض ـ تابع ويتبع ﴾

ماهو الخير والشر ؟

هاتان الكلمتان (الخير والشر) وما رادفهما يرد ذكرهما كثيراً في العلم الباحث عن أحوال النفس ومعاملاتها بل عليهما مدار هذا العلم في أوامره ونواهيه لأن الأنسان في حبه طالب خير وفي بغضه هارب من شر . وهذا هو ديدن الانسان مدة حياته . وكل واحد يعتقد في الجهة التي يطلبها الخير لنفسه وفي الجهة التي يهرب منها الشر (اللهم الا مبغضي ذواتهم) وكل واحد ينبسط للخير وينقبض من الشر . ولكن هل كل واحد يعرف ماهو الخير وما هو الشر وهل كل من اعتقد في جهة من الجهات الخير أو الشر مصيب ؟ لو كان كل واحد عارفاً بهما لكان كل واحد مصيباً في طلبه وهربه ولو كان كل واحد مصيباً لتضاءل الشر وتبارك الخير .

هذه القضايا مسلمة وبناء عليها نسأل ويقال لنا : من ذا الذي يتولى للناس تعريف هاتين الكلمتين ؟ فنقول هم الباحثون في أحوال النفس . فنسأل مرة أخرى ويقال لنا : من هم أولئك الباحثون ؟ هل هم الا أناس أمثالنا ؟ وفي هذا السؤال رائحة الإباء والاستنكاف فيجب ان يكون في الجواب رائحة الرفق والأناة فنقول: الباحثون في علم النفس أناس أمثال غيرهم من حيث الصور الجسدية وكذلك الباحثون في كل علم . ولكن لكل امرئ في هذه الحياة عمل تتفق له فيه اجادة لاتتفق لغيره سيما ان كان ذلك الغير ليس من أرباب ذلك العمل . مثاله الشاعر هو رجل وأنت ياأيها الفلاح رجل فهل أنت عاجز عما يعلمه ويعمله هو ؟ أليس لإنك لم تعان الشعر ؟ (بلى) واني أبشرك بأنه هو عاجز أيضاً عما تعلمه وتعمله أنت لانه لم يعان ماعانيته . كذلكم قولوا في الصائغ هو عاجز عما يعلمه ويعمله الخياط والثاني عاجز عما يعلمه الاول «